عبد اللطيف محمد موسى
من علماء الأزهر

الوسطية في الإسلام





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله

وبعد

فإن (الوسطية) تعني تلاقح الأفكار للوصول إلي مصالحة بين النفوس الثائرة ومن أجل توحيد الصفوف النافرة وتفاديا للهوة الضاربة إلي أقصي الضدين من بداية منهارة " وإن بدت متماسكة " ونهاية ممزقة خادعة " وليس فيها من إمارات الحياة شئ "

(وانعدام الوسطية أو تجاهلها) كثيرا ما تكون نارا تحت الرماد أو نارا ذات لهب تتهافت إليها البشرية ثم تسقط نفسيا وسلوكيا ، فكريا أو اجتماعيا وغير ذلك ...

وتبقي (الوسطية) منارة هادية هادئة ومنجية وواقية .

{ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ..} ١٥٣ الأنعام

من الواضح الجلي والمتفق عليه أن الوسطية في الإسلام سمة أساسية ورئيسية في البناء الأخلاقي كغاية، وفي مجال التشريع كوسيلة، يظهر هذا عند التأمل في منهج الإسلام نحو إصلاح الفرد وتقويم الجماعة، وبالتالي نحو دولة تحمل راية الإسلام، وتؤكد دورها الذاتي والتاريخي على امتداد الزمان والمكان.

ويلزم - أولاً - الوقوف على مدلولات (الوسطية) - في اللغة العربية وهي التي نزل بها القرآن الكريم باب الفهم ومفتاح الحل لكل المفاهيم الإسلامية التي عرفها - ويعرفها - المسلمون في شتى الأنحاء والاتجاهات.

جاء في تاج العروس[1] : الوسط (محركة) من كل شيء أعدله يقال شيء وسط بين الجيد والرديء ومنه قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ قال الزجاج فيه قولان: قال بعضهم: «عدلاً وقال بعضهم خيارا، واللفظان مختلفان والمعنى واحد لأن العدل خيار والخير عدل»،

وبمثل هذا يقول الفخر الرازي[2] وسطاً أي عدلا قاله الأخفش والخليل وقطرب ... ولا شك أن المراد بقوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ طريقة المدح لهم لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفا ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهوداً له ... والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد.

---

(١) ج٥ ص٢٣٨ ط: المطبعة الخيرية بمصر.

(٢) التفسير الكبير ج٤ ص٩٧ ط. المطبعة البهية بمصر.

ويقول الراغب الأصفهاني[١] : وسط الشيء ماله طرفان متساويا القدر ، ثم يقول: يقال فيما له طرفان مذمومان هذا أسطهم حسباً إذا كان في وسط قومه وأرفعهم محلاً وكالجود الذي هو بين البخل والسرف فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط .

وفي تفسير المنار[٢] : وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر ومذموم .

يقول الشيخ محمد عبده : في لفظ الوسط إشعار بالسببية فكأنه دليل على نفسه أي أن المسلمين خيار وعدول لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفْرِطين ولا من أرباب التعطيل المفَرِّطين فهم كذلك في الدين والأخلاق والأعمال .

---

(١) المفردات ص٥٢٢ دار إحياء التراث ببيروت .

(٢) ج٢ ص٤ نشر دار المعرفة بيروت.

وعنى القرطبي[1]: بالضبط اللغوي فنقل عن الجوهري: كل موضع صلح فيه بين فهو وسط (بسكون السين) وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط (بالتحريك) وربما يُسَكّن وليس بالوجه تقول صليت وسط (بالسكون) القوم وجلست وسط (بالتحريك) الدار.

وفي دائرة معارف وجدي[2]: الواسطة: الجوهر الذي في وسط القلادة، وهو أجودها والوساطة عمل الوسيط.

مما تقدم تبين أن لفظ الوسطية في متون اللغة ومباحث التفسير بمعني الاعتدال والخيرية وأنهما مما يمدح بهما الناس والأشياء.

كما أن للوسطية آفاقها الممتدة في العقائد والأخلاق والأحكام ـ كما سيأتي في توضيحه بعد بل إن الوسطية

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص١٥٤ دار إحياء التراث ببيروت.

(٢) ج١٠ ص٧٨٠ دار المعرفة بيروت.

ميزان ضابط في مجال النظم الاجتماعية والسياسية وفي الجوانب النفسية والتربوية لدى الأفراد والجماعات على حد سواء.

ومن ثم كانت الوسطية من محاسن الشريعة الغراء وعليها مدار الحياة كلها يقول الرسول ﷺ : «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ....»[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم ٣٩ باب الدين يسر ج١

الوسطية في (المجال التطبيقي)



يسلك الناس ـ في حياتهم ـ اتجاهين متباينين قبل الإسلام:

١) اتجاه تشكله المادة في المبدأ والواسطة والغاية وفي الجوهر والصورة، وهو واضح لدى المشركين واللذيين والإباحيين وهو ـ كذلك ـ ماثل عند اليهود في تصوراتهم لمفهوم الألوهية والنبوة ومن نظراتهم من التحليل النفسي للإنسان وفي تحركاتهم السرية وراء الجمعيات الماسونية وغيرها.

٢) الاتجاه الثاني ظهر كرد فعل للأول ـ في مجال التجربة والمعايشة ـ فتعمق في الروحانية البحتة ورفض الدنيا والدعوة إلى العزلة في الصوامع والخلوات، والهروب من الحياة العملية بسلبية واتكالية ويمثل هذا التيار النصارى والصائبون وطوائف من وثنيي الهند أصحاب الرياضات.

ولما كانت الحياة - دائماً - لا تقوم إلا على معادلة وموازنة بين الاتجاهين، مراعية حق الروح وحق الجسد كانت الامة الإسلامية وسطاً بين الحقين فتبلغ الكمالين والتصور الإسلامي شمولي إذ يبدأ بحق الله تعالى في أن يعبد ويطاع على نحو صحيح وحق الإنسان على نفسه في التوفيق بين متطلبات الروح ولذائذ الجسد وكذلك حقوق الأسرة ومن يعول وذوي القربى واليتامى وهم ضعاف مالياً وأدبياً وأصحاب الحاجات من المساكين ومن انقطع بهم الطريق وحق الفرد على الجماعة في نصرته وحق الجماعة على الفرد في الوحدة والأمن وكل ذلك من مقومات المجتمع وأسس ثباتها.

ويتفرع عن الوسطية السماحة وهي راجعة إلى الجبلة وتعنى سهولة المعاملة في اعتدال فهي وسط بين التشدد والتفلت وقد نوه - باهميتها - الذين عنوا بتوصيف

النفوس وتوظيف الأخلاق في خدمة الحركة الحياتية بعيدة عن الإفراط والتفريط لأن ذينك الطرفين يدعو إليهما الهوى ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[1] ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[2] ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[3].

وعن أهل الكتاب يقول الله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾[4].

ومن فعاليات الإسلام في الوسطية تشريع الرخص

---

(١) ص ٢٦.
(٢) البقرة ١٨٥.
(٣) الحج ٧٨.
(٤) المائدة ٧٧.

عند وجود مشقة محافظة على النفس وإباحة المحرم لضرورة مقدرة بقدرها فالشريعة ـ كما قال العز بن عبدالسلام ـ كلها مصالح إما درء مفاسد أو جلب مصالح.

يقول الدكتور عبدالكريم زيدان[1] ... ولكن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح عند التعارض.

إن الإسلام يوسع دائرة الطيبات ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾[2].

والقرآن يعد المال من زينة الحياة الدنيا بيد أنه يحذر من فتنته حيث أنه مدعاة إلى الأثرة والتكاثر فكل طيب منه حلال ونعمة وكل خبيث منه حرام ونقمة.

(١) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص٤٦.
(٢) الأعراف ٣٢.

وتنزل الآيات لضبط هذه النافذة وتحديد معالمها حلا وحرمة وهي كثيرة منثورة أو مجموعة في القرآن وفى السنة النبوية : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] . و(الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس . . .)[1]

ووجهة الإسلام في كبح الغرور المادي ورفض الزهد المبالغ فيه إنما يسلك السبيل من أجل بشرية سوية تاهت في صراع الوجود والدمار يقول تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ [3] .

---

(١) المنافقون ٩ .

(٢) رواه البخاري ٢ / ٧٤و١ / ٣٤ ط : دار إحياء التراث .

ومسلم في المساقاة ٣ /١٢١٩ـ١٢٢٠ ط : دار إحياء الكتب العربية .

وابن ماجه في الفتن ٢ /١٣١٨ ط دار الفكر .

وأبو داود في البيوع ٣ /٢٤٣ المكتبة العصرية .

(٣) القصص ٧٧ .

الوسطية (في العبادة)

المراد بالعبادة ـ هنا ـ المعنى العام فتشمل الصلاة والصوم، والحج، كما تتناول الجوانب العملية وتبرز الخطوط الموجهة لها والأهداف الرئيسية لها في وسطية واعتدال.

والذي لا شك فيه أن التشريع الإسلامي يرتقي بالفرد روحياً وأخلاقياً ويصله بالجماعة على طريق التأثر والتأثير ومن ذلك دعوة الإسلام إلى تعمير المساجد وإقامة الجماعة وكل صلاة هي معراج إلى الله عز وجل تخفف من أعباء المادة وأثقالها، والزكاة تحقيق لوحدة الشعور والتقارب وانتصار للإيثار على الأثرة والأمر ـ كذلك ـ في الصوم والحج والاعتكاف وكله انتقال روحي وجسدي ـ زماناً ومكاناً وحالاً ـ وتخفيف من هموم النفس التي كلت وسئمت فانحرفت وسط طوفان من الضلالات.

والجهاد من العبادة لأنه سبيل الله تعالى وإعلاء لغاية أعلنها القرآن الكريم ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى

وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[1] . إذ هو تمسك بالأهداف العليا واسترخاص كل غال من أجلها ومن نافذة الجهاد يطل علينا السعي على المعاش وهو ميدان متحرك ومستمر من حيث المكان والزمان والفائدة والوسيلة والغاية يقول ﷺ : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»[2] .

ومن العبادة طلب العلم فهو طريق المعرفة إلي الله تعالى وإلى النفس والناس والكون والنصوص في هذا كثيرة ومنثورة ومنها قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل

---

(١) التوبة ٤٠

(٢) رواه الترمذي جـ٣ رقم ٢٠٣٥ باب السعي على الأرملة ... والبخاري في صحيحه جـ٩ رقم ٥٣٥٣ باب فضل النفقة على الأهل.

بينكم مودة ورحمة ....﴾ وتستمر الآيات تعدد النعم حتى تجملها فتقول: ﴿وله من في السموات والارض كل له قانتون﴾[1] .

نتوقف للإجابة عن هذا السؤال: ماذا في العبادة من وسطية بهذا المفهوم والتصور الذي قدمنا؟ والواقع ان التشريعات في الإسلام ليست شاقة يصعب ممارستها ولاهي بعيدة عن الحياة أو نظراً مجرداً عن شؤون الناس فتؤدي إلى الإهمال والضياع وإنما هي في متناول الجميع والوسطية فيها من سماتها العامة ومن ميزاتها الواضحة ابداً.

وقد راعى الإسلام المتغيرات التي تعتري الإنسان والملابسات التي يتعايش معها لذا قامت التشريعات على

---

(١) الروم ٢٠ ـ ٢٦.

- قاعدة اليسر ورفع الحرج والتزام الوسطية بقوله ﷺ: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة القصد القصد تبلغوا»[1].

ونظر النبي ﷺ إلى رجل قائم في الشمس فقال: ماشأنه؟

فقالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»[2].

إن الإسلام يرفض الفكر الشاذ والعمل المتشدد ويقرر القرآن الكريم: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[3].

ويقول: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ [4].

---

(١) رواه البخاري. رقم ٣٩ باب الدين يسر جـ١

(٢) رواه البخاري. رقم ٦٧٠٤ باب النذر فيما لا يملك جـ١١

(٣) البقرة ٢٨٦.

(٤) المائدة ٣.

ويقول ﷺ : « هلك المتنطعون قالها ثلاثاً »[1] .

لعلنا ـ مماتقدم ـ قد أبنا عن نظرة الإسلام ـ في التقويم والتربية ـ إلى العمل الإنساني دون نزوع إلى الفوضى والتسيب ومن غير اتجاه إلى التشدد والتعنت فكلاهما ضلالة وانحراف ولكن الإسلام سلك مسلكاً وسطاً يطيقه الجميع بلا نفور أو هوى .

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٧٠ باب هلك المتنطعون جـ٤

وسطية التفكير (بين المعقول والمنقول)

من أسبـاب تكريم الله تعالى للإنسـان نعـمـة العـقل وشاع في القرآن الكريم الحديث عن قضيـة الفكر والعلم وهـمـا لازمـتـان للعـقل ومن أوائل الآيات نزولاً ﴿علم الإنسـان مـالم يعلم﴾[1] ، وتكرر ـ كـثـيـراً ـ في القـرآن الكريم الخطاب من الله تعـالى حـاثاً على التـأمل والنظر وصـولاً إلى مـعـرفـة الله تعـالى ومن ذلك : ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2] ، ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾[3] .

إن حرمة العقل وحرمة العلم أشرف خصائص الإنسان وهـمـا دليـلان على تقـدير العـقل وتأكـيـد دوره في الحـيـاة بشتى الجوانب والأبعاد .

---

(١) العلق ٥ .

(٢) الروم ٢١ .

(٣) طه ٥٤ .

ولله تعالى سنن لا تتغير ولها أسبابها العادية في الطبيعة والطباع ودور العقل أمامها في تفسيرها والانتفاع بها فقط وهو دور ـ من الأهمية بمكان ـ يعمق الصلة بالله تعالى كما أنه يجدد مسير الحياة وقدم ذم الله تعالي تعطيل العقل عن أداء وظيفته قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ (١) بيد أن العقول متفاوتة والإدراكات مختلفة وكثيراً ما تتعارض بسبب الجموح والتفلت والجنوح المغرور فلابد من ضوابط تكبح هذه الانطلاقة اللامحدودة ولن يكون إلا الدين فهو العاصم من التبدد والانحراف وبداية ليس يجوز للعقل أن يبحث في الذات الإلهية والأمور الغيبية عن ابن عباس قال:(٢) «خرج النبي ﷺ على قوم ـ ذات

---

(١) الانفال ٢٢.

(٢) رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة قال السخاوي والاحاديث في هذا كلها ضعيفة لكن اجتماعها يكسب قوة، فيض القدير جـ٣ ص٢٦٤.

يوم ـ وهم يتفكرون فقال: مالكم لا تتكلمون؟ فقالوا: نتفكر في الله. قال: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله تعالى» وفي رواية «فإنكم لا تقدرون قدره».

وفي العبادات والأوامر والنواهي فإن العقل ـ كذلك ـ ليس حراً بإطلاق ويجري عمل العقل حول النص والتماس الحكمة والهدف ثم يتوسع ـ ذلك ـ قدر طاقته مسترشدا بما استقر عليه الناس من قواعد واصول وبذا يصير العقل راشداً وموجهاً بتعاليم الإسلام نصا وروحاً في مجالي النظر والتطبيق على حدا سواء.

وما يكون مرتبطاً بشؤون الدنيا ـ من المتغيرات ـ داخل نطاق المصالح المرسلة ولا يتعارض مع الشرع الحنيف ولم يرد فيه نص قطعي الثبوت والدلالة ـ في ميدان الحكم والإدارة أو ميدان الحضارة والتطور الذي تقوم عليه الحياة ـ فللعقل فيه متسع ولا حرج ولا حجر.

وإذ نتحدث عن الحضارة فما يجدر ذكره ان الإسلام تلازمت فيه الدعوة كأصل مع الأخلاق كرقي إنساني ومع الحضارة كتطور مادي ولقد صال العقل الإسلامي ـ في هذا الميدان ـ وجال وجاد فما حاد وقد قال الرسول ﷺ : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] .

إن على العقل ـ في مسيرته ـ أن يلتزم الوسطية فلا ينفتح انفتاحة فجة تجرف ـ ما أمامها ـ من قيود لابد منها وحدود لا يصح التطاول عليها كما ان على العقل الا يتوقف عن العطاء ولا يجمد فتجمد ـ بسببه المسيرة الحياتية فهو في حال انفتاحه المغرور أو جموده المعطل ـ قد ضل الطريق وكان وبالاً على صاحبه وفتكا بغيره وتدميراً للحياة .

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٣٦٣ . باب وجوب امتثال ماقاله شرعاً ... جـ٤

ثم اي عقل هذا الذي يريد به صاحبه أن يحكم ويتحكم؟ وإنها شهوات النفس في الانفرادية وحب الظهور والحق أن العقل يصيب ويخطئ مرة هكذا ومرة هكذا ﴿ومن يهدالله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا﴾[1] . وتبقى الوسطية ـ دائماً ـ دليلاً على فكر سوي غير بغي وتحول مامون ومستقبل مامول .

---

(١) الكهف ٧

الوسطية (بين الحقوق والواجبات).

نظرة الإسلام إلى الفرد كنظرته إلى الجماعة لكليهما من الحقوق مثلما عليه من الواجبات، والفرد في المفهوم الإسلامي عضو نافع في جماعة تحكمها ضوابط سلوكية وعملية ليس الفرد معزولاً عنها .

يقول ﷺ : «المؤمن منفعة إن ماشيته نفعك وإن شاورته نفعك وإن شاركته نفعك وكل شيء من أمره منفعة»[1] .

ويقول ﷺ : «يد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار»[2] .

إن توحيد الله تعالى أصل العقيدة وهي تصدر عن الضمير والوجدان - أولاً - والحياة في داخل الإنسان على الفطرة الصافية لا يختلف فيها فرد عن فرد ولا جماعة

---

(١) رواه ابو نعيم. قال المناوي تفرد به ليث بن ابي سليم عن مجاهد وهو ثابت صحيح ، فيض القدير جـ٦ ص٢٥٨.

(٢) رواه الترمذي.جـ٣ رقم ٢٢٥٥ وحسنه السيوطي في الجامع الصغير

وإنما يكدر صفوها من اعتبارات متنوعة من خارج الإنسان كذلك فإن وحدة الجماعة والأمة هي الإطار العام حيث تلتقي فيه طبيعة الفرد مع المجتمع وتتداخل فيه المنافع كما تتشابك المصالح فيه ويحقق الفرد ذاته متجاوباً مع غيرها من ذوات الجماعة التي تعايشت واستقام أمرها على الطريق .

ولذلك يرفض الإسلام العصبية ويتجه الى الميدان الواسع الذي يضم الجميع من غير تنافر أو تضاد على أساس من المحبة في القلوب والألفة في العلاقات والوحدة في الصفوف وتسير الإنسانية في طور الرقي مستلهمة أهداف الإسلام ومثله وغاياته.

من أجل ذلك كان اهتمام الإسلام بالكشف عن النفاق فهو العدو المزمن والداء العضال وفضح المنافقين وعدد صفاتهم وسلوكياتهم وحذر منهم الكافة ، ومن

تعليقات القرآن الكريم: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾[1] .

وطرح الإسلام العديد من القضايا والوقائع التي عرضت ـ وتعرض ـ للفرد والجماعة وعالجها على أسلوبي الأمر والنهي كالعدل والبر وصلة الرحم وأداء الأمانة والوفاء بالعهود والعقود وكالنهي عن العقوق والجور والفجور والمن والرياء... الخ.

والأمر والنهي عملتان لوجه واحد وضرورتان متلازمتان والمقصود بالعملتين الحقوق والواجبات المتبادلة بين صنوف شتى تختلف أنماط حياتها ولكنها من حيث الثوابت والحاجات واحدة وهذا هو الوجه الواحد للعملتين .

---

(١) البقرة ١٦.

وحتى تستقر قاعدة الحقوق والواجبات وتأخذ وضعها الطبيعي لدى الفرد والجماعة فإنه لابد من تنازلات عن كثير من الرغبات الشخصية والمآرب الذاتية، وبتعبير آخر فإنه يتحتم ان تكون - ثمة - نقطة التقاء بين الفهم والتطبيق ومراعاة مايجب ان يكون أو لا يكون وذلك من منطلق الشعور الواحد والمصلحة العامة والهدف المنزه عن الهوى .

يقول ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] .

ويقول ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2] ولكي تستقر الحياة - في الجهة الداخلية -

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٥٨٦ . باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ...ج٤

(٢) رواه البخاري رقم ١٠ باب المسلم من سلم المسلمون ... جـ١

كانت الأحكام في العقوبات جنايات وحدود وتعزيرات فهي الدرع الواقي من التردي والانهيار وتامين من الفساد في الارض فهي ـ إذاً ـ عقوبات استثنائية لمن ادين بالخروج على الجماعة والفضيلة والنظم العامة وهي ـ الأحكام ـ كذلك ضرب من الوان التربية والانضباط للأمة من خلال الأفراد حتى تتحقق المعاني الإنسانية والمجتمع الإنساني وفي ميدان المواجهة مع خصوم الإسلام فالجدير بالذكر أن الإسلام يدعو إلى السلم ولكنه لا يسالم العدوان والحرب فيه دفع للظلم وحماية للمقدسات وغضب للحرمات على أن السلم ـ في الإسلام ـ من الثوابت الأخلاقية ومن الأصول العملية والمرعية فيه وحيث تقوم دواعي الحرب فمن أسباب القوة رد المعتدي وهي ـ حينئذ ضرورة دينية ودنيوية.

يقول الله تعالى: ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة

ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ...الخ ﴾[1] . ثم قال تعالى: ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ... ﴾[2] .

وهذه الحقيقة الإسلامية اعترف بها المنصفون من غير المسلمين يقول: روبرتسون[3] : إن المسلمين ـ وحدهم ـ الذي جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى.

إن هذا الميزان الدقيق الذي يبين ماهو للفرد على الجماعة او العكس وأوقات السلم واعتباراته وحالة الحرب ومبرراتها ـ في نطاق الحقوق والواجبات ـ يمكن تسميتها بالوسطية في الحياة العملية على شتى الجبهات الداخلية والخارجية لا يمكن السير بدونها او تجاهلها او الخروج عليها.

---

(١) الانفال ٦٠.

(٢) الانفال ٦١

(٣) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص١٦٢.

الوسطية (بين التجديد والتقليد).

يلزم - أولاً - أن نقف على معنى التجديد والتقليد وحكم الإسلام في كليهما:

إن التجديد ليس معناه هدم القديم لكي ينفسح المجال للجديد وحده ولسنا نعرف جديدا نشأ من فراغ فالحلقات الإنسانية متواصلة وتحتاج - أحياناً - إلى التعديل أو التصحيح لوضع شابه سوء الفهم أو سوء النية ومن ثم فإن حقيقة التجديد تصحيح المسيرة عند الاقتضاء وبهذا المعنى كان حديث الرسول ﷺ: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها) [1].

قال ابن كثير: « والظاهر أنه يعم جملة من العلماء من كل طائفة ومن كل صنف »[2].

---

(١) رواه ابو داود جـ٢ / ٤٢٤.

(٢) فيض القدير ج٢ ص٢٨٢.

ومن المعلوم ان النصوص متناهية والوقائع تحدث للناس في كل عصر وهي غير متناهية، من اجل ذلك كان الاجتهاد وهو: بذل اقصى الوسع في معرفة الاحكام من أدلتها وللمجتهدين (المجددين) مجالان:

١) بيان النصوص المحتملة لأكثر من تفسير أما القطعية الغير قابلة للتأويل فلا اجتهاد معها وشاع القول: «لا اجتهاد مع النص» ومن ذلك اختلافهم حول صدقة الفطر من تمر أو شعير ...الخ هل المقصود عين التمر أو الشعير وبه قال الجمهور أو المقصود إغناء الفقير فتجوز القيمة لأنها أكثر نفعاً له وهو رأي الحنفية[١] .

٢) المجال الثاني (في التجديد) استنباط الحكم فيما لم يرد فيه نص وكانت - ثمة - علة مشتركة وهو

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ج١ ص٦٢٧.

(القياس) ومن ذلك حديث (.... لا يبيع أحدكم على بيع أخيه)[1]

ألحقوا به حرمة الإجارة على الإجارة لوجود العلة المشتركة وهي الاعتداء على حق الأول.

واعتمد البعض بالمصلحة المرسلة والتي لا تخالف حكماً شرعيا واعتبر البعض الاستحسان وهو نظرة تجديدية وقالوا جميعاً بسد الذرائع وهو حماية للدين والحياة من الارتجالية في الحكم والفوضى في التطبيق.

وينبغي أن يكون معلوماً أن العطاء التجديدي لا يزال قائماً ولكن لمن ملك وسائله وأدواته ومن خلال جهود السابقين ولقد نقل عن الأول رأيان في المسألة الواحدة وأحياناً بالرجوع عن قول إلى راي آخر قد ارتضاه

---

(١) رواه النسائي .جـ٧ ص٢٢٦

والتجديد ـ من محدثات العلوم الحضارية لم يتردد فيه المسلمون فاخذو عن غيرهم واستحدثوا مناهج جديدة ونقلوا التراث بعرض ونقد وعلى نحو ظل ـ إلى اليوم ـ أصلاً ومرجعاً.

وإذ يقول الله تعالى: ﴿ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾[1]. فمنطوقها ومفهومها يؤكدان الجهد الإنساني المتواصل في مجال العمل شريطة أن يتقيد العمل والعامل بالضوابط العلمية المقيدة والمتفق عليها صلاحاً في الوسيلة والغاية والصلاح يضمن للعمل الوجود الطبيعي وهو القيمة الحقيقية للحياة على أن الحياة مراحل لا تستغني مرحلة عن سابقتها وحسب المجدد أن يكون له دور في التوفيق بين النص وثقافة العصر وهو جانب استنباطي يعني عرض المستجدات في ضوء

---

(١) سبا ١١

النص ثم تقريب مفاهيم الإسلام بالأسلوب المألوف وبالطريقة التي تعودوها . «وإقرار الاجتهاد في الإسلام كان استجابة عملية لسنة التطور وأحكام الواقع» [1] والعلم لا يتوقف والتغيير سنة الحياة والتجديد والمحافظة غير متعارضين وبينهما تكامل فالتجديد يحتاج إلى ضوابط وهي المحافظة كما أن الأخيرة لا تعني الجمود وإنما يأتي التعارض من خلط المفاهيم بين المحافظة والرجعية وبين التجديد المؤسس على قواعد والفوضى التي تتخبط بعشوائية .

تقول الدكتورة بنت الشاطئ[2]: «المحافظة هي الأصالة والرجعية هي الغفلة عن سنة الوجود وصمم عن سنة الكون والمحافظة على القديم حق وخير والرجعية

---

(١) الشخصية الإسلامية ص١٧٠ وبعدها .

(٢) نفس المرجع السابق بتصرف.

غيبوبة ذاهلة عن حركة سير الزمن وإهدار ميراث الأمة نسخ لمفهوم التطور ومناط إمتداد الحياة واتصالها نموها بين ماض وحاضر».

ولا شك أن التمسك والالتزام بالفهم الناضج والمنهج السديد أمر قد قرره الله تعالى إذ يقول: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1].

إن الإسلام لا يرضى بالتجديد منفصلاً عن النصوص ولابعيداً عن القواعد المقررة والتراث الهائل الذي عايش الحياة الإسلامية على طولها حتى صار أصلاً في كيانها ووجودها ووجدانها كما أن الإسلام يرفض تعطيل العقل عن اداء دوره إذا كان مؤهلاً لأن يرى رأياً أو يقول صاحبه

---

(١) النساء ٨٣.

قــولاً وبين الموقــفين فــإن لكل شيء طرفين ووسط فــإذا أمــسك بأحــد الطرفين مــال الآخــر وإذا أمــسك بالوسط اعتدل الطرفان فعليكم بالأوساط من الأشياء[١].

ولبعضهم[٢] وقد أجاد:

عليك بأوساط الأمور فإنها

نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

(١) أبو يعلى بسند جيد عن وهب منبه.

(٢) كشف الخفاء ص٣٩١.

خاتمة

إن الوسطية ـ بنصها وروحها ـ لها أهميتها في الإسلام وفي الحياة العملية والاخلاقية، ولقد شهد تاريخ المسلمين ـ كغيره ـ فترات من الاعتدال والوسطية اتسمت بهما الحياة العلمية والنشاط الفكري لفحول العلماء الذين ملئوا الساحة وامتدت ـ عن طريقهم ـ حركة التأليف ـ من غير تناحر أو نزاع وكان ذلك هو الطابع العام ـ الذي ميز الحياة بصفة عامة والجو العلمي بصفة خاصة .

وأما فترات التعصب والركود والجمود فقد شكل ذلك كله أثراً عكسياً على الحركة العلمية فتوقف العطاء ـ أو كاد ـ وانسحب بالتالي على سائر مظاهر الحياة .

ثم كان اتصال الشرق بالغرب ـ عن طريق الاحتلال والنفوذ بشتى أشكاله ـ وكان ذلك في فترة ترددت المسيرة العلمية واضطربت فنتج عن ذلك :

١) الفوضى والتبعية من جانب .

٢) التقوقع والانزواء من الجانب الآخر .

وبناء ـ على هذين الأمرين كانت دورة العلم تتخبط من الضد إلى الضد وفقدت مصداقيتها وتنازعتها الأهواء وتجاذبتها تيارات متعارضة لا تعرف الوسطية على نحو سليم وقواعد ثابتة وميزان مستقيم لكن الحياة الإسلامية قد شهدت ـ بين الحين والآخر ـ نفراً من العلماء في كل بلد وفي كل عصر سلكوا مسلكاً وسطاً بين شتى التيارات واثروا المكتبة الإسلاميةوتتابع الرواد من العلماء الذين واصلوا المسيرة حتى تماسك أمر الناس وهذه قضية أخرى عرض لها ـ بإفاضة وإفادة ـ الدكتور محمد حسين في كتابه: « الاتجاهات الوطنية » والسيد أبو الحسن الندوي في كتابه :« ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » والدكتور احمد أمين في كتابه : « زعماء الإصلاح »

والدكتور يوسف القرضاوي في كتابه: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» وغيرهم كثير .

وتبقى الوسطية قضية كل عصر ولازمة كل زمان وعاصمة من كل انحراف وقوام كل معوج وتظل الوسطية أماناً وقوة واستقرارا.

﴿وأن هذا صرطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبع السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون﴾(الأنعام ١٥٣).

فهرس